أصغر من الهجاء

ولما أنشد هذه القصيدة وانصرف اضطرب المجلس وكان نبطي من كبراء كتابه يقال له أبو الفرج السامري فقال له: دعني أسعَ في ذمه، فرخص له في ذلك وفيه يقول أبو الطيب:

[الوافر]

أَسَـــامِـــرِيُّ ضُـــحْـــكَـــةَ كُـــلِّ رَاءِ
فَـطِـنْـتَ وَأَنْـتَ أَغْـبَـى الأَغْـبِـيَـاءِ(١)
صَـغُـرْتَ عَـنِ الْـمَـدِيـحِ فَـقُـلْـتَ أُهْـجَـى
كَـأَنَّـكَ مَـا صَـغُـرْتَ عَـنِ الْـهِـجَـاءِ(٢)
وَمَـا فَـكَّـرْتُ قَـبْـلَـكَ فِـي مُـحَـالٍ
وَلَا جَـرَّبْـتُ سَـيْـفِـي فِـي هَـبَـاءِ(٣)

لا تعذل المشتاق في أشواقه

وأمره بإجازة أبيات فقال:

[الكامل]

أَلْـقَـلْـبُ أَعْـلَـمُ يَـا عَـذُولُ بِـدَائِـهِ
وَأَحَـقُّ مِـنْـكَ بِـجَـفْـنِـهِ وَبِـمَـائِـهِ(٤)

---

(١) فطنت: تنبّهت. يهجو الشاعر السامريَّ، إنه هزاءة ضحكة البشر، يسخرون منه لغبائه، فهو لا يقدّر الشعر حقّ قدره ولا يحترم قائله، وفطنته لم تهده إلى سرّ عظمة الشعر ولم يستطع تذوّقه، فاستحق السخرية لجهله.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢١٣. يوجّه الشاعر سهام نقده اللاذعة للسامريّ، فقد تضاءل حتى تقلّص ولم يعد يبدو شيئاً بل أصبح هباءة، لذا فهو لا يستحقّ المدح، حتى بدا يستحقّ الهجاء لذلك.

(٣) الهباءة: الشيء المنبثّ الذي تراه في البيت من ضوء الشمس. وما يدهش الشاعر أنه لم يطرأ على باله أنه بشيء عدمي يرى ويحسّ في حال وجود ذلك اللاموجود في نظره أصلاً، ولم تشأ الظروف أن يجرّد لسانه لمحاربة شيء لا يراه ولا وجود له أصلاً.

(٤) العذول: اللائم. لطالما تأكّد المتنبي من حاسديه ولائميه. بدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني، يتحدّث عن القلب ذلك العضو منبع الفكر والمشاعر، وهو المهيمن على كلّ حركات البشر، وهو المتحكّم بتوازن الجسد، وداء القلب نفسي يألم لألم صاحبه ويبكي لبكائه، وهو العالم بخفايا الأمور.

فَـوَمَـنْ أُحِـبُّ لأَعْـصِـيَـنَّـكَ فِـي ٱلْـهَـوَى
قَـسَـمـاً بِـهِ وَبِـحُـسْـنِـهِ وَبَـهَـائِـهِ[١]
أَأُحِـبُّـهُ وَأُحِـبُّ فِـيـهِ مَـلَامَـةً
إِنَّ الـمَـلَامَـةَ فِـيـهِ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ[٢]
عَـجِـبَ الـوُشَـاةُ مِـنَ الـلُّـحَـاةِ وَقَـولِـهِـمْ
دَعْ مَـا بَـرَاكَ ضَـعُـفْـتَ عَـنْ إِخْـفَـائِـهِ[٣]
مَـا الْـخِـلُّ إِلَّا مَـنْ أَوَدُّ بِـقَـلْـبِـهِ
وَأَرَى بِـطَـرْفٍ لَا يَـرَى بِـسَـوَائِـهِ[٤]
إِنَّ الْـمُـعِـيـنَ عَـلَـى الـصَّـبَـابَـةِ بِـالْأَسَـى
أَولَـى بِـرَحْـمَـةِ رَبِّـهَـا وَإِخَـائِـهِ[٥]

---

(١) البهاء: الجمال. يُقسم الشاعر بحبيبته أنه لن يستسلم لرجاء اللائم ويُطيعه وينزل عند رغبته ويفعل ما يطلبه منه.

(٢) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي: ٢: ١٤١. يُعمل الشاعر منطقه فلا يُمكن لعاقل أن يجمع الأضداد في وقت واحد؛ فهو لا يمكنه أن يجمع بين حبّه والنهي عن حبّه، ذلك أن النزول عند رغبة اللائم تدعو إلى الامتناع عن حبّه، وهو يُخلص الحبّ لحبيبه.

(٣) الوشاة، الواحد واشٍ: النمام الذي يحرّف الحقائق وينمّق الأكاذيب. اللاحي: اللائم. ثمّة خلاف بين الوشاة واللّحاة؛ فاللحاة ينصحون الشاعر بالتخلّي عن حبيبته، بينما الوشاة يستغربون تلك الدعوة بكتمان هذا الحبّ لأن من لا يستطيع الكتمان، فهو بالتالي يعجز عن ترك ذلك الحبّ لضعفه وعدم تخليه عنه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. والخِلّ: الصديق. الطرْف، بسكون الراء: النظر. يرى الشاعر أن الصداقة الحقّة بين الأخِلّة تلازم وتلاحم وتصاقب في المشاعر والأخلاق والأهداف، فالخليل يُحسّ بقلب صديقه ويشعر بمشاعر وليفه، فيألم لألمه ويسعد لسعادته ويُفكر بعقل صاحبه.

(٥) الصبابة: رقّة الشوق وحرارته. الأسى: الحزن، والمداواة والعلاج. يرى الشاعر أن العون من اللائم لا يكون إلّا بمدّ يد المساعدة والأخذ بيد صديقه لا باللوم والتوبيخ والتقريع بل بالمداواة وتقديم العلاج الشافي المضمون النتائج الحسنة للتخلّص من عذاب صديقه والنهوض به من عثرته.

مَـهْـلاً فَـإِنَّ الْـعَـذْلَ مِـنْ أَسْـقَـامِـهِ
وَتَـرَفُّـقـاً فَـالـسَّـمْـعُ مِـنْ أَعْـضَـائِـهِ(١)
وَهَـبِ الـمَـلَامَـةَ فِـي الـلَّـذَاذَةِ كَـالْـكَـرَى
مَـطْـرُودَةً بِـسُـهَـادِهِ وَبُـكَـائِـهِ(٢)
لَا تَـعْـذُلِ الْـمُـشْـتَـاقَ فِـي أَشْـوَاقِـهِ
حَـتَّـى يَـكُـونَ حَـشَـاكَ فِـي أَحْـشَـائِـهِ(٣)
إِنَّ الْـقَـتِـيـلَ مُـضَـرَّجـاً بِـدُمُـوعِـهِ
مِـثْـلُ الْـقَـتِـيـلِ مُـضَـرَّجـاً بِـدِمَـائِـهِ(٤)
وَالْـعِـشْـقُ كَـالْـمَـعْـشُـوقِ يَـعْـذُبُ قُـرْبُـهُ
لِـلْـمُـبْـتَـلَـى وَيَـنَـالُ مِـنْ حَـوْبَـائِـهِ(٥)
لَـوْ قُـلْـتَ لِـلـدَّنِـفِ الْـحَـزِيـنِ فَـدَيْـتُـهُ
مِـمَّـا بِـهِ لَأَغَـرْتَـهُ بِـفِـدَائِـهِ(٦)

---

(١) يخاطب الشاعر لائمه طالباً منه عدم التسرّع والاستمرار بلومه، فاللوم يزيده ألماً وأسىً ويجعل المرض يسري في جسده وينتشر حتى الأذن قد تبلى بالصمم.

(٢) هب: افرض. الكرى: النعاس. ويخاطب الشاعر اللائم بأنه يلذّ له اللوم، وذلك لا يُكلّفه شيئاً من العذاب والألم والهمّ الذي يعاني منه الشاعر، فهو لا يعرف للنوم طعماً، فليله سهاد وأرق وقلق وبكاء لما يعاني من حبّ.

(٣) يروى «لا تعذر» بدلاً من «لا تعذل». العذل: اللوم. الحشا: ما اضطمَّت عليه الضلوع. يطلب الشاعر من لائمه التوقف عن اللوم، وعليه أن يجرّب نفس الدواء الذي يتعاطاه الشاعر؛ إنه الحبّ فليجرب إكسيره، وليعش تجربة الشوق والعذاب وليمسك بيده النار المقدّسة.

(٤) تضرّج بالدم: تلطّخ. يرى الشاعر أن العاشق قتيل ودموعه دم ينزف مؤذنة بموت بطيء، طعمه العذاب ورائحته حشرجة مؤلمة، كمن قتل في ساحة الحرب، فكلاهما شهيد قضية.

(٥) الحوباء: النفس، الروح. يقرّر الشاعر حقيقة يؤمن بها أن العشق طعمه لذيذ، في حال قرب المعشوق أو بعده، فناره تطهّر النفس من أدرانها، وقد يتلف العاشق ويودي به إلى الهلكة، ورغم قسوة العشق فإن طعمه لذيذ وذو أثر في النفس والروح.

(٦) الدنف: المريض مرضاً دائماً مزمناً. أغرته: جعلته يغار. ويخاطب الشاعر لائمه بأنه =

وُقِـيَ الْأَمِـيـرُ هَـوَى الْـعُـيُـونِ فَـإِنَّـهُ
مَـا لَا يَـزُولُ بِـبَـأْسِـهِ وَسَـخَـائِـهِ[١]
يَـسْـتَـأْسِـرُ الْـبَـطَـلَ الْـكَـمِـيَّ بِـنَـظْـرَةٍ
وَيَـحُـولُ بَـيْـنَ فُـؤَادِهِ وَعَـزَائِـهِ[٢]
إِنِّـي دَعَـوْتُـكَ لِـلـنَّـوَائِـبِ دَعْـوَةً
لَـمْ يُـدْعَ سَـامِـعُـهَـا إِلَـى أَكْـفَـائِـهِ[٣]
فَـأَتَـيْـتُ مِـنْ فَـوقِ الـزَّمَـانِ وَتَـحْـتِـهِ
مُـتَـصَـلْـصِـلاً وَأَمَـامِـهِ وَوَرَائِـهِ[٤]
مَـنْ لِـلـسُّـيُـوفِ بِـأَنْ يَـكُـونَ سَـمِـيُّـهَـا
فِـي أَصْـلِـهِ وَفِـرِنْـدِهِ وَوَفَـائِـهِ؟[٥]

= لو حاول أن يحلّ محل من تلف لشدّة وطأة العشق على أن يحلّ محله في رحلة العذاب اللذيذ لأثار غيرته ولما رضي بالتخلّي عن نعمة هذا العذاب والإحساس بروعة الحبّ.

(١) وقي: حفظ. البأس: القوة. السخاء: الكرم. يدعو الشاعر لممدوحه بالسلامة من الوقوع بالحبّ وعذابه، ذلك أن قويّ الإرادة يتحلّى بشجاعة الأبطال وكرم الأسخياء، والهوى غلّاب يتغلغل إلى أعماق القلوب رغم ما يبدو عليه من ضعف فتّاك وليونة قاسية.

(٢) يستأسر: يُقيّد. الكميّ: الشجاع المتغطي المتستر بالدرع والبيضة. ومن قوة العشق أنه يقدر على أعتى الرجال من الأبطال الشجعان فلا يحول دون تسرّبه إلى القلوب الدروع وكلّ أنواع السلاح: فبلطفه يقدر على تمزيق كلّ الحواجز والموانع ليغزو القلوب والنفوس.

(٣) النوائب، الواحدة نائبة: المصائب، الويلات. الأكفاف، الواحد كفء: الأقران المساوون. يخاطب الشاعر سيف الدولة طالباً منه العون لمساعدته على تخطّي العثرات والمصائب التي يتعرّض لها الشاعر ليقطع دابرها ويتغلّب عليها بفضل مساعدته وحمايته، فسيف الدولة بطل الجلاد، يتصدّى لكل صعب وينجح في مهماته.

(٤) الصلصة: الصوت الذي تحدثه السلاسل الحديدية. كنت يا سيف الدولة ضربة الدهر الذي يهيئ أمثالك للأمة وقت المحن والشدائد، فكنت للشاعر عوناً عن دفع نوائب الدهر، فأقلته من عثرته، وأمسكت بيده إلى القوّة، وحملت عنه عبء الحياة.

(٥) من للسيوف: أي من يكفل لي بأن يكون في مثيل له. فرند السيف: رُبده ووشيه. =

طُبِعَ الْحَدِيدُ فَكَانَ مِنْ أَجْنَاسِهِ
وَعَلِيٌّ الْمَطْبُوعُ مِنْ آبَائِهِ(١)

ملك القلوب والزمان

واستزاده سيف الدولة فقال:

[الكامل]

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِ التَّائِهِ
وَهَوَى الْأَحِبَّةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ(٢)
يَشْكُو الْمَلَامُ إِلَى اللَّوَائِمِ حَرَّهُ
وَيَصُدُّ حِينَ يَلُمنَ عَنْ بُرَحَائِهِ(٣)
وَبِمُهْجَتِي يَا عَاذِلِي الْمَلِكُ الَّذِي
أَسْخَطْتُ أَعْذَلَ مِنكَ فِي إِرْضَائِهِ(٤)
إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ
مَلَكَ الزَّمَانَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

= من جميل قول المتنبي أنه لا يوجد في الحديدية القاطعة أمثال سيف الدولة الذي يشاركها بأسمائها ويختلف عنها بمزاياه، فهو بطل شريف الأصل يمتاز بخير الفضائل خلقاً وفعالاً ونحيزة وكرماً ووفاءً.

(١) كلّ شيء يرجع إلى أصله، والحديد يكنفه الصدأ، وقد يُبليه، ولا قلب له يُحسّ به؛ والسيف لا يقطع بذاته، ولكن بيد بطل. وسيف الدولة ذلك البطل الذي من آبائه صفات البطولة والعظمة والسؤدد والشرف.

(٢) التائه: المتحير. سوداء القلب: العلقة السوداء التي في جوف القلب. لن يؤثر لوم اللائمين؛ فالقلب نافر عاصٍ لا ينفذ إليه أثارة من لوم؛ ذلك أن حبّ سيف الدولة استحوذ على لبّ قلب الشاعرِ فملأه، ولا مكان لغيره فيه.

(٣) البرحاء: الحمّى. الشوق وتوهجه. ها هو ذا قلب الشاعر يردّ على اللائمين اللوم، فحرارته تحرق ممّا يجعل لوم اللائمين لا وجود له أصلاً فقد حقن قلبه بجرعة حبّ أفعمته، فحالت دون أيّ أثر جانبي لعذل أو لوم.

(٤) المهجة: الروح. أسخط: أغضب. يعلن الشاعر للعاذل أنه على استعداد للتضحية بنفسه فدًى للملك، ولذا فإنّه حمل سائر الناس على الغضب منه لما يبذله في سبيل رضى سيف الدولة عنه. ولقد استطاع التغلغل إلى أعماق قلوب رعيّته فملكهم طاعة وحبًّا وإعجاباً، فإذا به يتصرّف كما يحلو في الأرض والسماء والبشر.